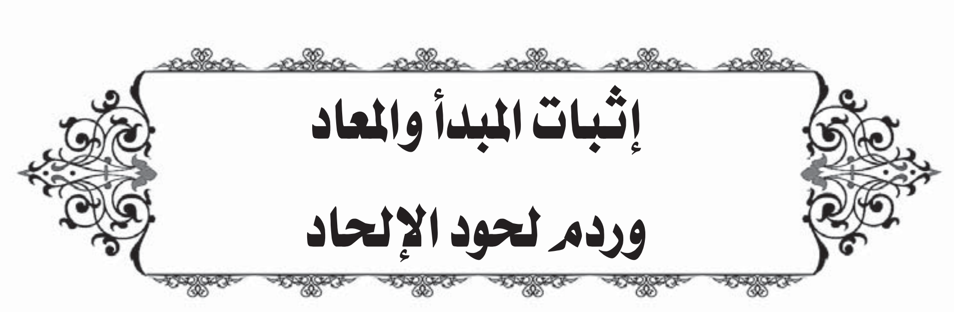


إثبات المبدأ والمعاد وردم لحود الإلحاد

من عطاء المرجع الراحل
الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء

■ الشيخ عبدالمجيد فرج الله
الحوزة العلمية في النجف الأشرف




توطئة:

الانتماء العلمي لمدرسة أهل البيت عليهم السلام يعني أول ما يعني أنه يأخذ المعرفة الحقّة من معينها الصافي المتصل بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا الأخذ ليس أخذاً لعلم ظني، أو لرأي شخصي، أو لهوى نفسي، بل هو أخذ للحقيقة كلها! ولذلك نركن بكل اقتناع لما يصلنا منهم من آثار معرفية، ومن علوم يقينية في شتى ميادين العلم والفكر والثقافة، بشرط أن تصح نسبة النقل عن سادتنا الكرام؛ محمد رسول الله وآل محمد المعصومين (عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام).

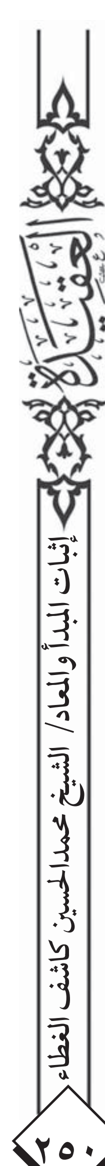
علم العصمة وجمال الإيصال:

وليس العلم المأخوذ عنهم، والمتعلَّم منهم، علماً جافاً بقوالب الصرامة العلمية، بل هو العلم المتضوّئ بالأدب والبيان، والمتضوّع برهافة التعبير ونصاعة البرهان! ولذا فإننا مع نتاجهم المعصوم تأخذ بألبابنا والعقول تلك العلوم الشاملة لكل ما في الكون والوجود، فليس من شيء مهما دقّ ولَطُف، ومهما كبُر وشرُف، إلاّ وأحصوه علماً، وأحاطوه فهماً، لأنهم يأخذون العلم من جبرئيل الأمين عن رب العالمين! وهم

(سلام الله عليهم وصلواته) يُضفون على هذا التأسيس المعرفي، والتأصيل العلمي، نفَساً راقياً من البيان البليغ، بأجمل المفردات وأدقّها، وبأعذب الصياغات وأرقّها.. فتكاد كل مفردةٍ تتوهّج بالعلم المتعانق مع الأدب، ويكاد يتحرّك بكل تركيبٍ ماء الحياة اليانع الرائع.. حتى أعجَز هذا الـمُنجَز كلَّ من حاول تقليدهم، أو رام مجاراتهم. وكشاهد على ذلك كتاب نهج البلاغة، فإنه يتحدّى كما يتحدّى القرآن المجيد أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وماذا عن تلامذتهم ؟

بكل صراحة سيقول المنصفون: إننا نقف منبهرين بضخامة الشخصية العلمية لكل تلميذ عَيلَم من تلامذة الأئمة عليهم السلام، وبالقدر نفسه نتلقّى مُعجَبين ما جاد به الذهن النيّر، والعقل المتوثّب لأيٍ منهم، وهو يرفد التاريخ المعرفي الإنساني بآثار وكتب، تتوشى سحر البيان، وتتميز بروعة الخطاب.. وهذا كله ما كان ليكون لولا أنّ أُولئك العلماء الأفذاذ قد أخذوا عن النبي والأئمة المعصومين (سلام الله عليهم) ذلك التزاوج والامتزاج بين عمق العلم والمعرفة، ونبض البيان والبلاغة. صحيح أنهم لن يصلوا إلى شأو نبيّهم وأئمتهم، لكنهم بمواهبهم الناصعة وقابلياتهم الفذة تمرّنوا على ذلك الأُسلوب الأخّاذ، بعد أن عاشوه روحاً، وفكراً، وذوقاً، ونطقاً، بالدراسة والتدريس، والمباحثة والمداولة، حتى شعّت حروفهم بما اقتبست من ذلك الوهج المبهِج المعجِز، ونجحت كتاباتهم في إلفات التاريخ العلمي والأدبي إليها، فسجّل أسماءهم بحروف الإكبار، وهو يفخر بنتاجهم المتميز، ويحمل تلك الآثار بين جوانحه سعيداً بما أبدع أُولئك العلماء الأدباء، الأعلام العظام!



حمل أمانة التراث:

وعلى ديدن تلامذة الأئمة الأطهار سار علماؤنا الكرام جيلاً بعد جيل، وطبقة

بعد طبقة، حتى إذا شاخ القرن الثامن عشر الميلادي وتابعه التاسع عشر وحل بعده القرن العشرون، والعالم العربي يهتز ويمور مأخوذاً بالغزو الأوربي العلمي قبل العسكري.. وإذا بكثير من العرب والمسلمين يقعون ضحايا اتّباع أعمى للغرب، أو ضحايا إعادة (لَوْكِ) ما تخمر في الأذهان المصابة برهاب الخوف من الفكر الشيعي، والبرهان الشيعي، والكتاب الشيعي، والأدب الشيعي، الذي كان علماء السلاطين يلهجون ليل نهار بالتحذير منه، والمحاربة له..

ومع الخطورة الشديدة التي كانت تهدد حياة علمائنا الأعلام، إلاّ أنهم قاموا برحلات إلى بلدان الإسلام ليوقدوا شموع المعرفة أمام الليل الأليل، وليزرعوا أشجار الورد في وجوه الريح الصفراء الصاخبة، لعلهم يستبدلون الهزيم المغبرّ بنسيم الأريج البليل العليل.



كاشف الغطاء:

من أُولئك العلماء الكبار كان الفقيه اللامع والعالم المتبحّر والأديب الفذ والمؤلف الموسوعي الشهير سماحة المرجع الديني الكبير الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء، الذي لُقّب في مصر بـ(الإمام الأكبر)، بعد أن ذاع صيته في بلدان العالم الإسلامي، وتفاجأ بسعة علمه ونصاعة أدبه علماءُ الأزهر، وقد كانت له رحلات ومراسلات، لها من الأهمية العلمية ما لا يقل عن كتبه القيمة، وآثاره النوراء التي طُبع منها كثير، ولا يزال قسم مهمّ منها ينتظر الطبع.

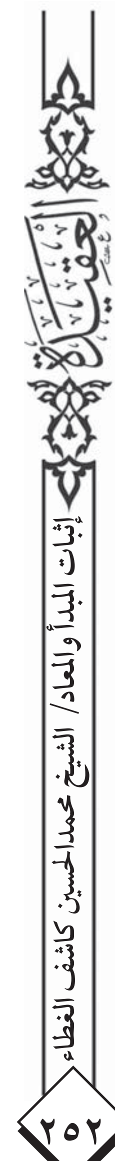
إثبات المبدأ والمعاد (عينة دراسة):

من مخطوطاته المنسية ذلك الأثر الجميل المسمّى (**إثبات المبدأ والمعاد وردم لحود الإلحاد**)، والذي جمع علماً ضخماً، وأدباً جمّاً، في مئة وخمسين بيتاً من الشعر العربي، كتبه في آخر ساعات ليلةِ إحدى سفراته، ولهذا الأثر قصة طريفة يرويها الشيخ نفسه في

إحدى مقالات كتابه (**الآيات البينات في قمع البدع والضلالات**)، وهو الكتاب الذي ضمّ عدة مقالات للشيخ كاشف الغطاء جمعها نجله وطبعها عام ١٣٤٥ في النجف الأشرف، ومن تلك المقالات المقال الموسوم بـ(**سانحة سفَر ومانحة ظفَر**)، وفيه يذكر (قدس الله نفسه) قصة إنشاء هذه القصيدة، إذ يقول:

«في رحلتنا الحجازية؛ التي انشأناها لحج بيت الله الحرام ولنشر الدعوة الإسلامية؛ وبعد قضاء بضع سنوات تجوّلنا فيها بين سوريا والقاهرة في القيام بتلك الوظيفة، عزمنا على العودة إلى مهبطنا الأول، وفي الليلة التي كنّا مصمّمين على الرحيل في صبيحتها من بيروت إلى حلب ثم منها إلى العراق، كان بعض المتحببين إلينا[1] من المولعين بالآداب وعلوم العربية من المسلمين والنصارى قد صنعوا حفلة وداع وتكريم على عادتهم المعروفة، وبينا كان عقد الاجتماع منتظماً، وشمل الحضور بأحاديث البشر والسرور ملتئماً، إذ دخل ثلاثة فتيان من شباب النشء الجديد على أحدث طرز، وأبدع زي وشارة، فدفعوا لصاحب المحلّ ورقة نظر فيها نظرة خفيفة.. جلسوا جلسة السرحان، واقتبسوا من أدباء المحفل قبسة العجلان، ثم اندفعوا خارجين، وانظم إليّ صاحب المحل ودفع إليّ الورقة وقال: إنّ الشبان الذين دخلوا وخرجوا رغبوا في دفع هذه الأبيات إلى مطالعكم والتمسوا عرضها عليك؛ وإن شئت الجواب عليها فذاك إليك، ففتحت الورقة وإذا هي قصيدة تشتمل على ما يناهز الستين بيتاً، وقد هالني لأوّل نظرة عنوانها المرسوم في صدرها وهو: «المبدأ والمعاد في الدين والإلحاد».

فقلت له: إنّ من العجب؛ هذا الرجاء والطلب، وأنت تعلم بأنّي على جناح سفر إلى شقة بعيدة، وقد قالوا: «المسافر كالمجنون» فقال: لا عليك أيّها الأستاذ وأنت في فسحة حتى تلقي عصى التسيار، وتطمئّن بك الدار، ثم ترسل إلينا مع البريد ما يتسنّى لك من الجواب المفيد. ثم لما انفضّ الجمع، وأويت إلى المضجع، أخذني الأرق والقلق، فقمت إلى الأنيسين؛ المزابر والمحابر، فما انقضى هزيع من الليل واتصل السهر



بالسحر إلا ومعي من الجواب قصيدة تناهز المائة وخمسين بيتاً، وما ذرّ قرن الشمس على البسيط حتى نهضنا لركوب القطار، على ابن البخار، وحضر صاحبنا مع جماعة من الأصحاب للموادعة، فدفعنا إليه نسخة الجواب، فما نظر فيها إلاّ وهزّه العجب، ثم استفزّه الطرب، وكان قد بقي عندنا سوادها".

بهذا الأسلوب الحصيف يخلب الشيخ كاشف الغطاء لبّ من يقرأ كلماته هذه، فينشدّ لمعرفة التفاصيل، إنه أُسلوب أدب المقامة التليد، يتوالف مع أدب القصة الجديد، وكما يذكرنا بأدب الرحلات، فإنه يعيد إلى الأذهان ما كانت تشتمله كتب النوادر والمستطرفات. ثم يقتطع نبذة من القصيدة التي دُفعت إليه، على أمل أن ينشرها مع الرد بالتمام في مستقبل أيامه، لكن! حان حَينه المفجع قبل أن تُنشر القصيدتان كاملتين، وها قد منّ الله علينا بأن مكّننا من الوقوف على قصيدة الشيخ كاشف الغطاء، إذ أماط اللثام عنها حفيده فضيلة الشيخ أمير كاشف الغطاء، فتفضّل بأن أطلعنا عليها، وأرانا القصيدة مخطوطة بخط سماحة الشيخ الكبير. ولنا أمل بأن يكون نشرها سبباً في إدخال السرور عليه، قدّس الله نفسَه، ونوّر بالرحمة رمسَه.



فضاء القصيدة:

يبدو أن أولئك (الشباب) لم يطيلوا الجلوس قرب الشيخ لأنهم قد أغرقوا في قصيدتهم بالصراحة وهم يُفصحون عن إلحادهم، وربما كانوا يشعرون في دواخلهم أنهم تجاوزوا كثيراً حدود اللباقة واللياقة، وأساؤوا في النقاش الحميد، لذا قرروا مغادرة المحل دون إطالة سلام وكلام، وبلا تعارف طويل، أو إدارة حوار، فدفعوا بالقصيدة، وتسربوا.. ويبدو أيضاً أنّ هؤلاء وأمثالهم استطابوا الارتماء في أحضان الإلحاد أو التشكيك الوافد مع القطعات العسكرية الغربية الغازية، وأسلموا قيادهم لهذا القادم الفكري الجديد، (هذا إذا لم يكونوا طابوراً خامساً يعمل لحساب الغزاة)!

هم يرون الإنسان مخلوقاً ليس بأفضل من سائر المخلوقات، فهو جسم مادي، وغرائزه كغرائز الحيوانات الأُخرى، وهو ابن الأرض، وليس له إلا هذه الحياة، وليس بعدها معاد! فليس المعاد بزعمهم إلاّ أُمنية اخترعها بعض الناس!! وهذا ما تصرّح به أبيات عديدة من تلك القصيدة التي يبدو أن شاعرها أستاذ لهؤلاء الشباب أو زميل قريب منهم، إذ يقول معترضاً على علماء الإسلام في نظرتهم لمعاد الإنسان:

زعمـــوا أنّـــه غريـــبٌ بـــأرضٍ ... لـــيس فيهـــا ســـواهُ شيءٌ غريـــبُ

وعجيـــبٌ عليـــهِ فيهـــا اتصـــالٌ ... وانفصـــالٌ لا شيءَ فيـــهِ عجيـــبُ

ذاك سرٌّ فـــوقَ العقـــولِ مصـــونٌ ... وعلينـــا مـــن جهلِـــهِ تثريـــبُ

حَـــلّ فيهـــا حتـــى إذا مـــا بلاهـــا ... وابتلتْـــهُ منهـــا الخطـــوبُ يـــؤوبُ

فاستشـــفَّ المعـــادَ شـــوقاً ورجّـــى ... أن يكـــونَ المرغـــوب لا المرهـــوب

تلـــك مِنّـــا لنـــا تعلّـــةُ قلـــبٍ ... فكـــأنَّ العقـــولَ منّـــا القلـــوبُ

شـــبَّ فيهـــا ولـــيسَ يُـــفصَلُ عنهـــا ... وبهـــا يرتـــوي ومنهـــا يُصـــيبُ

إن يَعِـــشْ فـــالمقرُّ عنهـــا بعيـــدٌ ... أو يَمُـــتْ فـــالمقرُّ فيهـــا قريـــبُ

مثـــلَ كـــلِ الأحيـــاءِ فيهـــا بزوغـــاً ... ومغيبـــاً فلـــيسَ عنهـــا مغيـــبُ

خـــبّروني مـــا دام منهـــا وفيهـــا ... أيـــنَ يبقـــى معـــادُهُ المحبـــوبُ؟

ويعلّق سماحة الشيخ كاشف الغطاء على هذه الأبيات وشاعرها تعليقاً فيه لوعة أبوية، وحسرة تنبثق من أعماق القلب، وهو يرى هؤلاء يضيعون برخص وانطفاء أمام الموجة الملحدة القادمة من وراء الضباب، فجاءت كلماته صريحة هادرة وهو يتحدث عن الأبيات الآنفة الذكر وشاعرها بقوله:

"هذا الفصل كلّه يشير فيه إلى الإنسان، ويقول إنّهم يزعمون أنّه خلق غريب وكائن عجيب، والحال أنّه لا عجب فيه ولا غرابة، بل هو كسائر الكائنات عبارة عن



اتصال ذراري المادة وانفصالها، فمبدأه من المادة ومعاده إليها؛ ولكنه تعلّةً لقلبه صوّر لنفسه معاداً ترجّى أن يكون فيه المرغوب له من النعيم، لا المرهوب من العذاب والجحيم، وهو مثل كلّ الأحياء بزوغه من المادة وليس له مغيب عنها، فإذا كان لا يزال فيها ولا ينفك منها فأين يكون معاده المحبوب؟ ثم شرع في التشكيك بمسألة المعاد عند أهل الأديان فقال:

خبّروني عن حكمةٍ من مجيءٍ ... لمآبٍ تُعَدُّ فيه الذنوبُ
ولماذا هذا الثوابُ المرجّى؟ ... ولماذا هذا العقابُ الرهيبُ؟
حلّ فيها قسراً وقسراً سينأى ... وهو في ذا بكلّهِ مغصوبُ
كيف يشقى المسؤولُ عمّا جَناهُ ... وهو ما فيه من عيوب وجوبُ؟"

هكذا يسوق الشيخ بعض أبيات ذلك المتغرّب، فتأخذه طبيعة البحث العلمي في حلقات الدرس الحوزوي، إذ يأتي إلى إشكالات الخصم وشُبَهه فيسردها بكل أمانة، ثم يعطي إشارات أوليه إرجاعية لمنشأ تلك الإشكالات والشبهات، ليهيئ ذهن القارئ إلى الجواب الآتي، ويعلق الشيخ آل كاشف الغطاء تعليقاً سريعاً، قائلاً:

«وكأنّ هذا المادي أصبح أشعرياً وعاد جبرياً، فأشكل بأنّه إذا كانت العيوب في الإنسان على الحتم والوجوب فكيف يُسأل عن جنايته، ويعاقب على جرمه وجريرته. وهذا الإشكال إنّما يرد على الأشاعرة لا علينا، كما سيأتي التلميح إليه في الجواب، ثم توغّل في الجبرّية فقال:

أيَّ ذنبٍ جَناهُ إن هو أخطا؟ ... أيَّ فصلٍ يُنيلهُ التصويبُ؟
وهو في عارضِ التفاعلِ فعلٌ ... ما له في الخيارِ فيه نصيبُ
فاصطفاهُ الإلهُ خَلْقاً سوياً ... وكأنَّ الكمالَ فيه العيوبُ»

ويواصل الشيخ تعليقاته التي تضمنها مقاله المذكور، لكنه هذه المرة يلسع ذلك الملحد ببعض الكلمات المباشرة قائلاً عن شاعر تلك الأبيات:

«ثم تصاعد بل تسافل في الضلال، وعام في دياجير الوهم والخيال، بل الجنون والخبال، فأخذ يخبط عشواء، وشنّ الغارة الشعواء، على حضرة الحق المقدّسة بالإنكار والجحود، فقال:

فكأنَّ الإنسانَ دميةُ طفلٍ وكأنَّ الإلهَ فيهِ لَعوبُ

وبنى الجوهرَ المقيمَ من الوهمِ وعدّ الأعراضَ عنيا تغيبُ (٢)

وبرى اللهَ لا الإلهُ بَراهُ مثلَهُ في الهوى رضيٌّ غَضوبُ

راحَ يرجوهُ وهو بالوهمِ يحيا واستعادَ الشروقَ فيه الغروبُ

وترضّاه بالذي يترضّى ظالميهِ به الفتى الرعبوبُ»

واضح جداً أن شاعر تلك الأبيات يطلق النار بسخرية إلحادية باتجاه عقيدة كل من يعتقد برب يعبده وهو بزعمه يحيا بالوهم! وأمام هذه السخرية الملحدة يتابع الشيخ كاشف الغطاء كلامه وهو ينتقي بعض أبيات القصيدة التي وصلته من أُولئك الشباب، في مقالته المشار إليها، فيقول عن شاعرها:

«ولم يزل يجري على غلوائه، ويستن مارحاً في أفانين ظلمه وافترائه، حتى ختم قصيدته بأقصى الظلم والعدوان طاعناً في كلية الأديان، قائلاً:

لا تقولوا الأديانُ فينا لِسِلْمٍ إن تقولوا فقولُكم مَكذوبُ

كم جنيتُمْ بها علينا خراباً إنّما الدينُ فتنةٌ وحُروبُ

قابلوا عصرَنا بظلمِ عُصورٍ سادَها الدينُ ثم بعدُ أجيبوا»

إنه ختام حاد، وهو يثير حمية كل ذي دين ملتزم بدينه ومقدساته، فينبري الشيخ



في الساعات الأخيرة من ليلة إقامته، ليرد رداً شعرياً على الوزن والقافية نفسيهما، ولما كانت الأبيات الملحدة قد تجاوز بها شاعرها أسلوب الحوار العلمي الهادئ، وجنح إلى التجريح والاستهزاء، فقد انطلق كاشف الغطاء شاعراً يردّ بقوة على هذا التجاوز الذي مسّ الأديان، لكنه مع ذلك رد مدعّم بالحجة والبرهان.. وقبل أن نسرد قصيدة الشيخ في الرد، نذكر آخر ما قاله في مقالته وهو يوجّه كلامه إلى قارئه فيقول:

«وأنت ترى أيّها الناظر في ما انتخبناه لك من خيار تلك الأشعار أنّها أقوال سايغة، وكلمات فارغة، عارية عن كل حجة، عازبة عن رائحة الدليل والبرهان، جحود محض، وإنكار صرف، ودعاوى من غير شاهد ولا بيّنة..

الرد الدامغ والبرهان البالغ:

نعود الآن إلى أجواء قصيدة الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء التي كتبها في الرد على هذا الإنكار للمبدأ والمعاد، فقد قالها وقد «كان الذهن ينظم، والقلم يرسم، من غير ريث ولا مهلة، والتوفيق منه والمنة له» كما هو يصف حاله رضوان الله عليه، في تلك الليلة التي سهرها مُتعباً، وكان يزمع الرحيل في صبيحتها على متن القطار (ابن البخار)، لكن قلبه لم يكن ليذوب من التعب والسهر، بل لِما آل إليه فكر هؤلاء وأمثالهم من المقتاتين على بقايا فضلات الإلحاد الغازي، ولذا كان يبكي على أبناء أُمته بكاءً داخلياً بنحيب وعويل، وهذا ما نستشفه من مطلع قصيدته، التي وشَت لنا بانفعالاته الداخلية، وهو يقول:

أيُّ قلبٍ من الأسى لا يذوبُ ... حُقَّ يا نفسُ أنْ يطولَ النحيبُ

زعَموا أنّنا خواطرُ وَهْمٍ ... تتلاشى وللفناءِ نؤوبُ

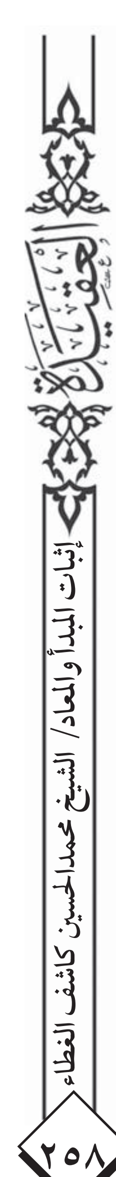
ويبدو أنّ الشيخ مندهش، كما يندهش كل عاقل مفكر، من سقم تفكير أُولئك الذين يرون الوجود الإنساني كله وهماً بوهم! هكذا يزعمون!! والشيخ بكل

موضوعية يذكر مزاعمهم زعماً زعماً، ويصوغ الرد عليها شعراً يتعشق فيه الاقتباس والتضمين، ويُطوّع فيه مصطلحات علم الكلام والفلسفة لتكون في غمار الشعر أكثر تأثيراً ، وهو يبتعد بنجاح واضح عن جفاف المادة العلمية ونقاشاتها التخصصية. كما أن للشيخ كاشف الغطاء اقتناصات بلاغية جميلة، يتذوقها الأُدباء وكل من له اطلاع على علم البلاغة، من قبيل قوله:

زعــــمــوا أنّهــم خــلايــا وحــقــاً مــن خــلاءِ العقــولِ تخلــو القلـــوبُ

فهو في هذا البيت يتفنن بلاغياً بآلية التورية؛ إذ جاء بكلمة (خلايا) وهي الكلمة التي يتحدّث بها الملحد وجماعته، وكأنهم هم من خلق الخلية لا خالقها، فكلمة (خلايا) جمعُ مفردةِ (خليّة) المعروفة في الفسلجة وعلم الأنسجة، والشيخ يأتي بكلمة (خلايا) ليوري بها عن خواء عقول الإلحاديين، بل خلوّهم عن العقول، فتكون كلمة (خلايا) جمعاً لمفردة (خليّ) أي (الخالي)، أو لمفردة (خالية) المؤنثة، استهزاء بعقولهم! وهو حين يقول: "وحقاً" أي حقاً أنهم خالون، ولكن من أي شيء؟ هل من كل شيء؟ أم خالون من العقول؟ إنه تفنن البليغ النابه.

والشيخ يؤكد أن هؤلاء الملاحدة إذا كانت دعواهم صحيحة ومقالهم حقاً فحريّ بالناس أن ينتحروا، لأنها نكبة وأية نكبة! إذ يعانون أشد المعاناة في هذه الحياة، حتى تصبح المنايا أماني، وهنا تفنن بلاغي آخر في تحريك حروف الألف والميم والنون والياء، مع ألف ثانية (م،ن،ا،ي،ا = منايا) التي هي حروف كلمة (أماني) نفسها! ويستنتج الشيخ أن العيش لا يطيب طالما يعيش كل إنسان شبح الموت والفناء قريباً منه، ثم تنتهي حياته بلا حياة أُخرى ولا خلود، مع أن الخلود لا يشك فيه فيلسوف، ولا يدخل الريبُ فيه أيَّ أريب، وهنا يُلحظ أيضاً التفنن البلاغي للشيخ كاشف الغطاء بجعل مجاورة بين مفردتي (استراب) و(أريب). ثم يتحدث أيضاً عن (الحِمام) ذلك الموت المليء بالرهبة، تلك الرهبة التي يعيشها حتى من يعتقد بالخلود والسعادة



بعد الموت كالنبي موسى والنبي عيسى (عليهما وعلى نبينا وآله وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام). أما إذا كان (ذَيْـلُ الفَنـاء) مسحوباً حتى على الأرواح، فكيف سيكون حالهم؟ وأية وحشة تكتنف هذه الحياة البائسة التي لا يخفف مرارتها إلاّ حلاوة نعيم ثواب ما بعد الموت؟

هذه الفكرة صاغها شعراً المرجع الديني الكبير الشيخ كاشف الغطاء، وهو نفسه يُعلّق عليها نثراً في مقالته قائلاً عن نفسه:

«يريد أن العقلاء والحكماء كانوا يرهبون الموت ويعدونه من أعظم الأهوال، على علم منهم بأنه ليس هو إلاّ مفارقة الروح عن البدن وخلعها له واستبدالها عنه ببرد قشيب، وعيش خصيب، فكيف لو أيقنوا بانسحاب الفناء والعدم على أرواحهم، ثم شرع في رفع الاستبعاد عن المعاد، والإشارة إلى لمحة من حقيقته، ولمعة من شؤونه وكيفيته».

كذلك يلقي الشيخ أسئلة صارخة في قصيدته، وهي تحمل إجاباتها معها لبداهتها، ولذا قال عن تلك العقول التي لا تحكم بهذه البدهيات: "سواءٌ غبيُّها واللبيبُ"! ثم ينتقل سماحة الشيخ كاشف الغطاء إلى الحديث عن النفوس الأمارة بالسوء التي تغلب العقول الضعيفة، ولن يكون وازع لخيرها إلاّ بالدين، وبعد ذلك يتعرض لرأي أئمة أهل البيت عليهم السلام أن لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين، والشيخ بهذا يرد من وراء السطور على الجبرية وعلى المفوّضة معاً في معرض ردّه على هذا الشاعر الملحد..

احترام العقل بإقناعه:

في قصيدة الشيخ تبدو العقيدة التي تُقنع العقل، وترد الرد المفحِم على شاعر تلك الأبيات، إذ ليس الإنسان مجبوراً على أفعاله، وبذا تكون الحرية الصحيحة المقننة

للإنسانية، متمثلة بحرية كل فرد من أبنائها، لكنها الحرية التي تبني الحياة، وتبعث العقل من ركوده، وتُرشّد الهوى من جموحه، وهو ردّ أيضاً على من قال بالجبر أو بالتفويض من (متكلّمي) الأشاعرة أو المعتزلة، وكاشف الغطاء يكشف الغطاء بهذا الشعر / الذي يتخطى أسوار الشعر التعليمي بنجاح/ عن المنهج الصحيح المتمثل بفكر أهل بيت رسول الله ﷺ المعالج لهذين الإشكالين وأسئلتهما؛ الأول: هل نحن مجبورون على أفعالنا؟ إذن لماذا نُعاقَب؟ وإذن أين عدل الله؟ والثاني: هل نحن مُختارون في أفعالنا؟ إذن أين هيمنة الله علينا؟ وإذن أين قدرة الله؟

وبينهما يتبين (الأمر بين الأمرين)، فالإنسان يختار أفعاله، ويتحمل مسؤولية فعله لها باختياره، وتبقى قدرة الله نافذة في جميع الأشياء، بما فيها الإنسان، الذي أعطاه ربّه العقل والإرادة، وبصّره صلاحه وفساده، وأمره بأن لا يفعل إلا الصالح والنافع، ونهاه عن اقتراف المفاسد، ونبهه أن يتحلى بالفضائل، ويتجنب الرذائل.. فهو إنسان عاقل بصير مختار، يدري تبعة كل فعل من أفعاله، لذا إذا ألغى عقله، ورفض هدى ربّه، واختار ما فيه ضرره أو ضرر مجتمعه، فإنه سيتحمل مسؤولية فعله، وسيُعاقَب بما يستحقه، وبذا يتحقق عدل الله.. كما أن الله يُجري بقدرته ولطفه المقادير، ويجعل مع التقدير أحسن طرق التدبير، فهو بهذا على كل شيء قدير، لكن قدرته لا تعني أن يفعل شيئاً يعارض عدله. وبذا يكون التوازن الدقيق، ويتحقق الغرض السامي في إعطاء الإنسان فرصة تطبيقية ليمارس كل ممارساته حسب قناعاته وقدراته، والله المحيط الرقيب، والهادي الحسيب.. وهذا كله أحصاه علم الله، فهو تبارك وتقدس لدقة علمه ونفاذه يعلم ما سيكون من أفعالنا قبل أن نفعلها، وبدون أن يجبرنا على فعلها. فياله من علم علمه! ويا لها من حكمة حكمته!

هذا الفكر هو الذي يدور في فلكه ذاك الشعر، الذي جادت به قريحة الشيخ في آخر ليلة من ليالي إقامته..



مهزلة ادّعاء أن (الله) فكرة اخترعها الإنسان:

بعد هذا الخوض الطويل ينتقل الشيخ إلى تفنيد الزعم الواهي بل المضحك لمروّجي الإلحاد؛ إذ يدّعون أن الإنسان هو الذي (اخترع) فكرة وجود الله! وطالما أن الإنسان يرضى ويغضب، فقد تخيل الله مثله (رضيّاً غضوبا)!! وقد عبّروا تعبيراً مثيراً؛ أن الإنسان هو الذي برأ الله، تبارك ربّنا وتقدّس، وهذا نص قولهم:

وبـــــرى اللهَ لا الإلـــــهُ بَـــــراهُ   مثلَـــهُ في الهـــوى رضيٌّ غَضـــوبُ

فيناقش الشيخ هذا الزعم المتهافت، ويُطالب بأن يقيم مدّعوه أدلة على ادعائهم هذا، وقد وصف الشيخ أبياته في رد هذه الدعوى الباطلة بأن قال عن نفسه: "ثم أخذ في تفنيد ما تقحم عليه من إنكار الإله تعالى شأنه وإنها دعوى بلا دليل، ومزعمة بلا حجة ولا برهان، بل الحجود المجرد، والإنكار المحض، فقال:

وزعمتَ (الإنسان قـــد بـــرأَ اللهَ)   مَقـــالٌ منـــه النواصـــي تشيبُ
قد تعوّدْت مثلَـــهُ لســـت تـــأوي   لِـدلـيـلٍ ولا لِرُشْـدٍ تَـــثـيـــبُ
يـــا دويَّ الأحشـــاءِ وهـــو مُـــداوٍ   وسـقيـمَ الآراءِ وهْـوَ طبيـــبُ
قـــلْ لـنـــا: أيُّ حُجّـةٍ لكَ فـــيما   تَـــدّعيـــهِ؟ بـــل أيُّ وَهْمٍ يُريـــبُ؟!
(صَلَـفٌ تحـتَ راعـدٍ وسَـــرابٍ)   هـو بالمكـــرِ والخـداعِ مَشـــوبُ

إن الشيخ ومن يرى رأيه من المؤمنين بوجود الله قد أقاموا آلاف الأدلة على وجود الله، بل على كونه واجب الوجود. ويوبخ بالشعر ردّاً على (صلفهم) في الإدعاء وإلغاء العقل، داعياً إلى الاحتكام إلى ما يحكم به العقل، ويقرّه المنطق السليم.. ثم يؤكّد أن أُولئك الناعقين لا يخلو منهم عصر، ففي كل زمان ترتفع الأصوات الناشزة بالإلحاد أو التشكيك، أمام صوت الحق الناطق بالإيمان، المتناغم مع الفطرة والعقل وتسبيح كل الموجودات لخالقها المدبر الحكيم..

سُـــنّةٌ في البقـاءِ ســـارَ عليهـا الـــ ـــكونُ دهـراً، ونَـهْــجُهُ مَلحـوبُ

نعم، فهذا النهج واضح منذ قديم الأزمنة، إذ كلما قام (مرشد) واجهه (ملحد)، وكلما انبرى للإصلاح (مصلح) عانده (مفسد)، فليس الإلحاد تقدّماً وتطوّراً ومعاصرةً، كما يدّعي ذلك المدّعون، بل هو دعوة للباطل والضلال يُطلقها أعداء العقل والقيم النبيلة في كل عصر وأوان. والغريب أن دعاة الإلحاد وهم يرسّخون دعواهم بأن لا معاد للحساب، ولا حياة بعد الموت، يقولون: إن الحياة جهاد، ومجالات الجهاد والعمل فيها رحبة وواسعة، فيقتنص الشيخ كاشف الغطاء تناقضهم هذا وتهافت دعاواهم، ليقول ما مضمونه: ما الفائدة من الجهاد والكدح إذا لم يكن جزاء ومثوبة؟ بل يصرّح بتساؤل كبير ومثير: (لماذا أنا أشقى ويسعد غيري)؟ ويترقى أكثر في إثارة السؤال؛ إذا كان زعمكم حقاً فليخسر إذن العلماء وليخيبوا، لأنهم أكثر الناس عناء في هذه الحياة، ولأنهم يفنون أعمارهم كلها بطلب العلم وتحصيل المعرفة، حتى يحين موتهم، فإذا لم يكن لهم جزاء بعد حياتهم، ومآب بعد موتهم، ومعاد بعد فنائهم، ففي أي شيء كان العناء؟ ولماذا هذا الدؤوب المتواصل في البحث والتنقيب والدراسة والتحليل والافتراض والاستنتاج؟ بل ما أشد خُسرهم! وما أشقى حياتهم! إذ لم يبقِ منهم غير ذِكرهم وحسب، ولكن (ما يُفيـدُ المعــدومَ ذكــرٌ يطيــبُ) وقد استفاد من جهودهم المضنية المعاندون والمترفون، فلماذا يكون العناء والشقاء نصيب العلماء؟ ويصير قطف الثمار للمعاندين الجهلاء؟

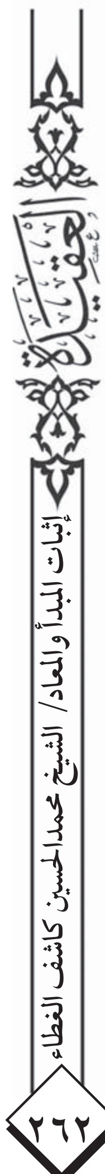
إنْ يَــكُ الحـقّ ذا، فأشقـــى البرايـا عالِموهـا ، فلْيخســـروا ولْيخيبـــوا

كابَدوا جَهْدَ عيشِهِــمْ ثــم ألــوَتْ قبـلَ أدنـى الحظـوظِ فـيهِمْ شَعــوبُ

كم لهـمْ في الأكـوانِ بـدْعُ اكتشـــافٍ لاحَ للـــعينِ سِـــرُّهُ المحـــجـوبُ

ثـم وَلَّــوا مِــلءَ الحـيــاةِ عـنــاءٌ وشـــــقاءٌ وزفـــرةٌ ونحيـــــبُ

ذهبـوا غيـرَ ذِكْرِهِـــمْ ولَــعَمْـــري ما يُفيـدُ المعــدومَ ذكــرٌ يطيـــبُ



وماذا عن خلق العالم ؟

بكل ثقة ويقين يفتح الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء مداراتٍ جديدة في هذا الحوار الشعري الصريح؛ فإذا يدّعي الملحد أن الله ليس هو خالق الإنسان والكون، فمن هو الخالق إذن؟ ثم ما هي (الصدفة)؟ إذ يدعي الملحدون أنّ العالم وُجد صدفة! وكيف يوجد صدفةً؟ والكون بهذا النظام المحكم العجيب لا يمكن أن يوجد مصادفة، بل لا بد أن يكون خالقه هو الخالق العظيم الحكيم العليم.. ثمّ لماذا كل هذا العداء ضدّ الفكر الديني؟! وما الأُسُّ الذي يقوم عليه الدين إلاّ العفاف والطهر والتآخي والصـــدق والتهذيـب والفضيلة والأخلاق.. بهذا جاءت الأديان، فماذا يُبغَض من هذه التعاليم الفاضلة؟ وإذا كان تقصير عند بعض حاملي الدين بسبب جهلهم، فاللوم والتثريب لا يقع على الدين، بل على أُولئك الجاهلين الذين قصّروا في إبراز الوجه الناصع للدين...

هكذا يدير الشيخ دفة الحوار مع ذلك النفر الملحد، ثم يطالبهم كاشف الغطاء بأن يكشفوا عن شريعة الإلحاد؛ هل للإلحاد شريعة؟ ما هي؟ وما هي قِيَم الإلحاد التي تصلح أن تكون شرعةً ومنهاجا؟ ويُعرّض بهم إذ ليس في الدين عهر ولا عيوب، في تهكم خفي بأن لا شرع للملاحدة إلا العهر والعيوب والفساد.

أما المؤمنون حقاً فليس يوم الحساب عليهم يوماً عصيباً، بل لا يكون عصيباً إلاّ على الظالمين والجاحدين.

ثم يستطرد الشيخ كاشف الغطاء في إبطال تخرّصات كل الذين يلقون تبعات ذنوبهم وآثامهم على طبيعة تكوين الإنسان بادّعاء أنّ الذي برأ الإنسان وخلقه على هذه الشاكلة من النقص، إنما هو الإله كما يعتقد المؤمنون به، فيتنصلون من أخطائهم بمثل هذه المقولة الجبرية التي استفاد منها الملحدون في الطعن بالإسلام خاصة، والأديان عامة. والشيخ يدعوا إلى أن (يكعموا) أنفسهم عن الرذائل، فإن جامح الطبع

من النفوس يُروّضه التدريب، والأديان قد كعمت النفوس، أي هذبتها وكبحت جماحها، وبالمناسبة فإن مفردة (كعم) ومفردة (مكعوم) شائعة في اللهجة الشعبية العراقية الدارجة في المناطق الجنوبية، وهي مفردة فصيحة جداً، وقد استخدمها الإمام علي عليه السلام بقوله: «**وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْـمَرْجِعِ، وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ، فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ، وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ، وَدَاعٍ مُخْلِصٍ، وَثَكْلَانَ مُوجَعٍ**».

في الدين السلام لا الحرب:

وبعد ذلك يردّ الشيخ كاشف الغطاء على مدعياتهم بأن الدين هو الفتن والحروب! وطريقة الرد تتركز على أن الأديان ما جاءت تدعو إلا إلى السلم والحلم، وكانت تدعو على الدوام كل فرد من أتباعها ليكون صدره رحيباً، في كناية عن التسامح والمحبة، ثم يسوق الشيخ أمثلة على ذلك فيها روحية التواصل مع الآخر المختلف عنه في الدين، فيجعل النبيّ عيسى عليه السلام مثاله على ما يقول، والتوراة القديمة، وكذلك الحبيب المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم.. لكن المشكلة تكمن في أمراض الأجسام التي لا يعالجها إلاّ الفصد، هكذا يؤكد كاشف الغطاء في كناية عن مثيري الحروب من المجرمين وتجار الدماء المرضى، إذ لا تتحصّن الحياة الإنسانية إلاّ بمجاهدتهم ومحاربتهم، وهذا من باب العلاج. ثم يسوق أمثلة أُخرى جميلة، منها؛ أن الأشجار لا تكون ثمارها أشهى وأينع إلاّ إذا شُذّبت، والتشذيب قطع، لكنه قطع مفيد لأنه يخلص الشجرة من الأغصان العليلة، وكذا فإن العضو الفاسد يُقطع حتى لا يسري الداء إلى كل الجسم، هذا هو منطق الحكمة.. ومن هنا يقرر الشيخ مؤكّداً أن علة الفساد في المجتمع البشري إنما هي الإلحاد، وطالما أن الإلحاد ينفي المعاد، لذا سلك الناس الملحدون طريق الظلم والتجاوز والإجرام، حتى ينالوا

أقصى قدر من متاع الدنيا وحطامها، وهذا التوجّه المقيت سببه مادية التفكير الملحد، ومحاربة الإلحاد لقيم التسامح والتآخي الدينية المحبوبة.

وجهلتم مواضع الحرب حتى قلتم (الدين فتنة وحروب)
أيّ دين ما جآء بالسلم والحلم وللعفو منه صدر رحيب
أفعيسى ذاك الوديع أم التورا ة قدماً أم النبي الحبيب

ثم يرد الكلام عليهم، وهم يدّعون بأن هناءهم يكون بسوى الأديان، كلا فبالأديان يكون طب النفوس المراض، وبالأديان يكون خصب العقول المجدبة، لأن الأديان هي النور في ظلام الليالي، وهي الجبال الرواسي الشوامخ على امتداد الدهور- تلك الدهور التي يستعير الشيخ وصفاً لها بالسهوب، فيُلبس غير المحسوس ثوب المحسوس، في معالجة بلاغية جميلة.. إذن لا يقع اللوم على الأديان، بل يقع على بعض المنتسبين إلى الأديان الذين أهملوا الالتزام بها حتى تلاعب بها أصحاب الجهالات، وإلاّ فالأديان تجمع ولا تفرّق...

ثم يطلق الشيخ كاشف الغطاء دعوة بل ثورة من أجل العلم والتعلم، وهو يكثر من كلمة (علِّمونا)، بطريقة التوكيد اللفظي، ويسوق القيم الدينية العليا لتكون هي مادة التعليم والتثقيف والبناء الحضاري المرتقي بالإنسان.

وختامها مسك :

أما ختام القصيدة فهو على نسق فكرة كثير من سابقي الشيخ ومجايليه في مدح قصائدهم، ذاكراً أنها (الحَيا الشؤبوب) والشُؤْبوبُ هو الدُفْعَةُ من المطر، فهي كالمزن تكون لقوم مياهاً عذبة تروي الظماء، وعلى قوم آخرين تكون صواعقَ ولهيبا، وأما سبب طولها فهو سعة نفَس شاعرها ورحابة صدره، وفي الكلام كناية رشيقة ومديح



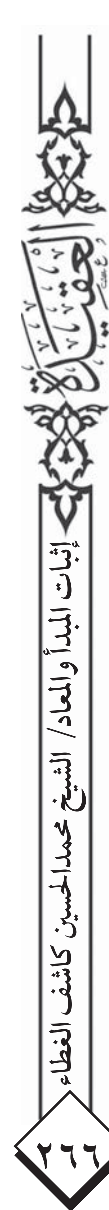
نفس خفيّ، ولكن الشيخ كاشف الغطاء يراها (دون ما تُلزِمُ للدين ذمة ووجوب)، وقد استبدل الشيخ كلمة (الدين) بكلمة (الحق)، ربما لكثرة تكرارها في طيات القصيدة. ولا يختمها إلاّ بعد أن يبدي استعداده لرد شعري جديد فيما لو عاود الطرف المقابل. ويكون آخر مسك الختام بالسلام على (القائلين عدلاً) وفي هذا تورية يريد بها الشيخ السلام على (العدلية) الذين يعتقدون بالعدل الإلهي، ويجعلونه الأصل الثاني من أصول الدين بعد التوحيد، وهذا السلام مستمر باستمرار هبوب رياح الشمال والجنوب:

إنّ للـــديـــنِ عِـصْمـــةً لا تخيـــبُ   خائبٌ مَـــنْ يَـــرومُ بالدِيـــنِ سُـــوءً

فَـعلى القـائلـــينَ عَـــدلاً ســـلامٌ   مـــا تَجـاوَبْـــنَ شَمْـــألٌ وجَنـــوبُ

ولولا أن يطول المقام لبسطنا الكلام أكثر وأوسع حول هذه القصيدة العلمية، التي كانت واحدة من نوادر المرجع الراحل الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء، وقد أفعمها بأفكاره النيّرة لتشتمل كما يعبّر هو "تشتمل على مصالح الأديان للإنسان، وما فيها من ثمرات الأخلاق والعمران، ومقابح الإلحاد، وما فيه من الشر والفساد"...

وها نحن نقدّم القصيدة بين يدي القارئ الكريم، آملين أن نكون قد أسدينا خدمة تليق به قدّس الله نفسه ونوّر الله رمسه، ولنُخرج للنور هذه الدرّة الثمينة حفاظاً على أداء أمانة التراث والتاريخ.



بسم الله الرحمن الرحيم

إثبات المبدأ والمعاد
وردم لحود الالحاد

أيّ قلب من الأسى لا يذوب … حق يا نفس أن يطول النحيب
زعموا أننا خواطر وهم … تتلاشى وللفناء نؤوب
زعموا هذه الحياة اتصال … ما لها في البقاء قط نصيب
زعموا هذه الجواهر منا … عرض زائل ورق حلوب
حركات ظواهر خافيات … تتجلى طورا وطورا تغيب
حركات ولا محرك فيها … وحساب وما عليه حسيب
زعموا أنهم خلايا وحقا … من خلاء العقول تخلو القلوب
إن يكن ذا المقال حقا فأحرى … بانتحار هذا الملا المنكوب
والمنايا هي الأماني وإلا … أي عيش للعاقلين يطيب
أي عيش يطيب يوما لمن يعلم أن الفناء منه قريب
وخلود النفوس ما شك فيه … فلسفي ولا استراب أريب
وعلى العلم منهم فيه لكن … عندهم للحمام هول رهيب
ما استطابته روح موسى وعيسى … ولهم بعده النعيم الصبيب
أيقنوا أنه تفرق جسم … منه للروح غض برد قشيب
ثم ما لذ للأنام جناه … لا ولا راق كأسه المشروب
كيف لو يحسبون حتى على الأرواح منهم ذيل الفناء سحوب
يا عقولا أضلت الرشد منها … فسواء غبيها واللبيب
وغلب المين منذ كان على الخلق وضاع التعليم والتأديب
أترى تجهلون ما الكون إلا … رحلة ثم جيئة وذهوب
ما المنايا إلا تبدل دار … ليوفى الجزاء فيها المثيب
أيضيع الإحسان في شرعة العدل وتنجي للظالمين الذنوب؟
أفسيان محسن ومسيء … وسواء منعم وحريب؟

حاشا الله ما بذا يحكم العقل … ولم تستقم عليه شعوب
أفليس النفوس أمارة بالسوء … والعقل للهوى مغلوب؟
ألها وازع عن الشر غير الدين … حيث الأهواء فينا ضروب
وضلالا حسبت أن ليس للمرء اختيار وأنه مغصوب
هو فعل لكنه فعل مختار … وللاختيار فيه نصيب
ليس شيء من الطبائع حتم … فيه كلا ولا بفعل وجوب
هو لوح من النقوش خلي … وبما شاء لوحه مكتوب
ليس قسرا يلقى لخير وشر … بل بمسعاه فضله والعيوب
غير أن الشقي خوف عقاب … (إن يرحب فبالغنا الترحيب)
وزعمت الأوثان قدما القدم … فقال منه النواصي تشيب
قد تعودت مثله لست تأوي … لدليل ولا لرشد تثيب
يا دوي الأحشاء وهو مداو … وسقيم الآراء وهو طبيب
قل لنا أي حجة لك فيما … تدعيه برأي وهم يريب
(صلف تحت راعد وسراب) … هو بالمكر والخداع مشوب
يستفز الغر الجهول وفيه … ذو الحجى عارف وعنه عزوب
قد أقمنا من الأدلة آلافا … فإن لم تستيقنوا فأجيبوا
ودعوا البهت والسباب فإن الشمس لم يطف ضوءها تكذيب
ما لديكم ولا دليل على الإلحاد … يلفى بل ضجة وصخيب
ما خلى من صحيحكم قط عصر … أو يخلو من الغراب نعيب
ليس ذا عصركم نعم كل عصر … لكم فيه خابط وشغوب
كلما قام مرشد صد عنه … ملحد . للضلال داع مجيب
سنة في البقاء سار عليها الكون دهرا ومنهم ملحوب
وزعمتم أن الحياة جهاد … ومجال الجهاد فيها رحيب
خبرونا إذا الفنا منتهى الناس ففيم العنا ولم ذا الدؤوب
أنا أشقى سعيا ويسعد غيري … بعنائي وعيشي المنكوب

صورة مخطوط المبدأ والمعاد وردم لحود الالحاد للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (قدس سره)

علّمونا انّا جميعاً بنو جنس ولكن قبائل وشعوب
علّمونا وداعة وسخاءً وإخاءً به الحياة تطيب
علّمونا انّ الديانة عقدٌ يلتقي الربّ فيه والمربوب
ليس من شأنها العداء وان يصبح ذا ناكب وذا منكوب
علّمونا مع الأنام سلاماً لا سلاحاً كالصاعقات يصوب
كل يوم تبدون منهن شكلا كلّ شكل للحتف فيه ضروب
كم محقتم فيها بلاداً وقوماً وأبيدت بها شباب وشيب
ليت شعري أجاء هذا من الأديان ام ذا العصر منكم التخريب
كم جنيتم في الاجتماع ذنوباً وزعمتم منّا عليه الذنوب
جرّدونا من شرع العدل والفضل وهل فاتنا القصاص الرهيب
لا وحقّ الانصاف لم تنصفونا ولك الشرّ الينا منسوب
غير ان الاديان حجر على الانفس والنفس ميلها التسييب
علّمونا اخوّة بارحتنا فدهانا التشتيت والتنكيب
ليت انّا ندري بما قد دهانا فاتفاق فنهضة فوثوب
قد دهتنا الأهوال تنذر جهراً سوف يستعبد الشرق غرب
وهناك الفناء حقاً والا فحياة الذليل موت كريب
فدعونا من التضارب انّا في رزايا ما ان لهن ضريب
فعسانا نهب من وهن الوهم فيرتد مجدنا المسلوب
ودعوا الدين ليس للدين جرم بل على الناس جرمها المكسوب
ان تكلّم دلائلي ولعمري ان نهج الهدى بها ملحوب
واذا لم يفد بكم كل هذا واستمر الجحود والتكذيب
فطباع العناد فيكم قديم ولكم فيه دربة ودروب
ذاك اقوى سلاحكم ولعمري (هو منكم ميراثنا المشجوب)
ايها العاطش الحث الى نهلة العلم انجعها فهي الشؤبوب
بيّنات تهمي بها سحب الفكر وراها التفتيش والتنقيب
هي كالمزن عند قوم مياه ولقوم صواعق ولهيب

صفوة قد اصبتها بعد ما طال اليها التصعيد والتصويب
ان تجدها طالت فما هو الا نفس واسع وصدر رحيب
واراها وان تطل دون ما تلزم للدين ذمة ووجوب
وحذار الملال صدّ والا فمجال المقال للحق عذب خصيب
ولكم مثلها وضيء بيان كبقاع به السنا مشبوب
ان تحرك تجد ذا الأذرعي فقلوب الورى لها تقليب
خائب من يرم بالدين سوءاً ان للدين عصمة لا تخيب
فعلى القائلين عد الاسلام ما تجاوبن شمال وجنوب

٦

صورة مخطوط المبدأ والمعاد وردم لحود الالحاد للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (قدس سره)

إثبات المبدأ والمعاد وردم لحود الإلحاد

أيُّ قلبٍ مـــن الأســـى لا يـذوبُ ... حُـقَّ يـا نفسُ أنْ يطـولَ النحيـــبُ
زعَـمـــوا أنّــنـــا خـــواطـــرُ وَهْمٍ ... تـــتـــلاشـــى وللـفـنـــاءِ نـــؤوبُ
زعـــمـــوا هـذهِ الحـيـــاةُ اتصـــالٌ ... ما لهـــا في البقـــاءِ قَـــطُّ نصيـــبُ
زعـمـــوا هـــذهِ الجـــواهـــرُ مِـــنّا ... عَـرَضٌ زائـــلٌ وبَـــرْقٌ خَلـــوبُ
حـركـــاتٌ ظَـواهِـــرٌ خـافـيـــاتٌ ... تتجلّـــى طـــوراً وطـوراً تغيـــبُ
حـركـــاتٌ ولا مُحـــرّكَ فـيـهـــا ... وحســـابٌ ومـــا عليـــه حَسيـــبُ
زعـمـوا أنّهـم خـلايـــا وحـــقـــاً ... مـن خـلاءِ العقـولِ تخلو القلـــوبُ
إنْ يكنْ ذا المقـالُ حقـــاً فـــأحـرى ... بـانتحـــارٍ هـــذا المـــلا المنكـــوبُ
والمـنـايـــا هـــي الأمانـــي وإلاّ ... أيُّ عيـــشٍ للعاقلـــينَ يطيـــبُ
أيُّ عيـشٍ يـطـيـبُ يـومـاً لمـنْ يعـــ ... ـــلمُ أنّ الـفـنـآءَ مـنـــهُ قـــريـــبُ
وخلـودُ النفـوسِ مـــا شـــكَّ فيـــهِ ... فـــلسفـــيٌّ ولا استـــرابَ أريـــبُ
وعـلـــى العلـمِ منهـــمُ فيـــهِ لكـــن ... عندَهمْ للحِمـــامِ هـــولٌ رهيـــبُ
مـــا استطابَتْهُ روحُ موسى وعيســـى ... ولهُـــمْ بعـــدَهُ النعيـــمُ الصبيـــبُ
أيـــقـــنـــوا أنّــه تَـفـرُّقُ جســـمٍ ... منهُ للروحِ غـــضَّ بُـــرْدٌ قَشيـــبُ
ثـــمّ ما لـــذَّ لـــلأنـــامِ جَـنـــاهُ ... لا ولا راقَ كـــأسُـــهُ المـشـــروبُ
كـيـفَ لو يحسبونَ حتـى علـــى الأ ... رواحِ منهـــم ذَيْـــلُ الفَنـا مسحـــوبُ
يـا عقـــولاً أضلّـــت الرُشْـــدَ منهـــا ... فـــسواءٌ غـبيُّهـــا واللبـيـــبُ
(غَـلبَ الـمَـيْـنُ منذُ كانَ على الخلـــ ... ـــقِ)، وضـــاعَ التعليـــمُ والتـأديـــبُ
أتُـــرى تجهلـــونَ مـــا الكـــونُ إلاّ ... رحلـــةٌ ثـــم جـيـئـــةٌ وذُهـــوبُ

مــــا المنـايــا إلا تَـبــــدُّلُ دارٍ ... لِـيُـوفّى الجـــزاءَ فيهـــا المثيــبُ
أيضيعُ الإحسانُ في شِرعـةِ الـعـد ... لِ؟ وتُـحبـى للظالمـينَ الـذنـوبُ؟
أفسيّـانِ محُسـنٌ ومُسـيءٌ ... وسـواءٌ مُـنـعَّـمٌ وحـريـبُ ؟
حاشَ للهِ مـا بـذا يحكـمُ العقـ ... ـلُ، ولـمْ تَستقِمْ عليهِ شُعـوبُ
أفليسَ النفـوسُ أمّـارة بالسـو ... ءِ، والعقــلُ للهـوى مغلـوبُ ؟
ألها وازعٌ عـن الشرِ غيـرَ الـ ... ـدينِ؟ حيثُ الأهواءُ فينا ضُروبُ
وضلالاً حسـبتَ أنْ ليسَ للمَـرْ ... ءِ اختيـارٌ وأنّـه مَـغـصـوبُ
هـو فعـلٌ لكنـه فعـلُ مختـا ... رِ ، وللإختيـارِ فيـهِ نصيـبُ
ليـسَ شـيءٌ مـن الطبائـعِ حتـمٌ ... فيـهِ كـلاّ ولا بفعـلٍ وجـوبُ
هـو لـوحٌ مـن النقـوشِ خلـيٌّ ... وبما شـاءَ لـوحُـهُ مكتـوبُ
لـيسَ قسراً يُلقى لخيـرٍ وشـرٍ ... بـل بمسعـاهُ فَضلُـهُ والعُيـوبُ
غيـرَ أنّ الشقـيَّ خـوفَ عقـابٍ ... (إنْ يُرحّـبْ فبالفَنـا الترحيـبُ)
وزعمتَ (الإنسان قـد بـرأَ اللهَ) ... مَقـالٌ منـه النواصـي تشيـبُ
قـد تَعـوّدْتَ مثلَـهُ لستَ تـأوي ... لِـدليـلٍ ولا لِرُشْـدٍ تَـثـيـبُ
يـا دويَّ الأحشـاءِ وهـو مُـداوٍ ... وسـقيـمَ الآراءِ وهْـوَ طبيـبُ
قلْ لنـا: أيُّ حُجّـةٍ لـكَ فيمـا ... تَـدّعيـهِ؟ بل أيُّ وَهْـمٍ يُريـبُ ؟!
(صَلَـفٌ تحـتَ راعـدٍ وسَـرابٍ) ... هــو بالمكـرِ والخـداعِ مَشـوبُ
يَستغـرُّ الغِـرَّ الجَهـولَ وفيـهِ ... ذو الحِجى عـارفٌ، وعنـهُ عَـزوبُ
قـد أقَمْنـا مِـن الأدلـةِ آلافـاً ... فـإنْ لـم تَـستيقنـوا فـأجيبـوا
ودَعوا البَهْـتَ والسُبابَ فـإنّ الـ ... ـشمسَ لـم يُطْفِ ضوءَها تكذيـبُ
مـا لـديكم؟ ولا دليـلَ علـى الإلـ ... ـحـادِ يُلفى، بـلْ ضَجّـةٌ وصَخيـبُ

ما خَلا مِن صَخبِكُمْ قَطُّ عصرٌ ... أَوَيخلو مِن الغرابِ نَعيبُ؟!
ليسَ ذا عصرَكُمْ، نَعَمْ كلُّ عَصْرٍ ... لَكُمُ فيهِ خابِطٌ وشَغوبُ
كلَّما قامَ مُرشِدٌ صَدَّ عنهُ ... مُلحِدٌ . للضلالِ داعٍ مُجيبُ
سُنّةٌ في البقآءِ سارَ عليها الـ ... ـكونُ دهراً، ونَهْجُهُ مَلحوبُ
وزعَمْتُمْ (أنَّ الحياةَ جهادٌ ... ومَجالُ الجهادِ فيها رَحيبُ)
خَبّرونا إذا الفَنا مُنتهى النا ... سِ، فَفِيْمَ العَنا؟ ولِمْ ذا الدؤوب؟
أنا أشقى سعياً ويسعَدُ غيري ... بعنائي ؟! وعيشيَ المنكوبُ
ثم أفنى ولا جزاءَ وحَظّي الـ ... ـعَدَمُ الـمَحْضُ والفَناءُ الرحيبُ
إنْ يَكُ الحقّ ذا، فأشقى البرايا ... عالِموها ، فلْيخسروا ولْيخيبوا
كابَدوا جَهْدَ عيشِهِمْ ثم ألْوَتْ ... قبلَ أدنى الحظوظِ فيهِمْ شَعوبُ
كم لهمْ في الأكوانِ بدْعُ اكتشافٍ ... لاحَ للعينِ سِرُّهُ المحجوبُ
ثم وَلَّوا مِلءَ الحياةِ عناءٌ ... وشقاءٌ وزفرةٌ ونحيبُ
ذهبوا غيرَ ذِكْرِهِمْ ولَعَمْري ... ما يُفيدُ المعدومَ ذكرٌ يطيبُ
خَبّرونا عن صدفةٍ نشأَ العا ... لَمُ منها؟ ما ذا النظامُ العجيبُ؟
وغريبٌ بهِ الفنى، ولَعَمْري ... ما بهِ كالجحودِ شيءٌ غريبُ
أُسُّ أديانِنا عَفافٌ وطُهْرٌ ... والتآخي والصدقُ والتهذيبُ
وإذا أهلُهُ أضاعوهُ جَهلاً ... فعلى جهلِ أهلِهِ التثريبُ
إنّ أديانَنا الفضيلةُ والأخـ ... ـلاقُ، لا العُهْرُ لا الخنا لا العيوبُ
ذاك شرْعُ الأديانِ كُلاًّ، فماذا ... شَرْعُ إلحادِكُمْ؟ ألا فأجيبوا
ولو آنّا نشاءُ قولاً لَقُلْنا ... وهُناكُمْ يبدو الخطا والخطوبُ
ليسَ يوم السراطِ إلاّ على الظا ... لِمِ والجاحدينَ يومٌ عصيبُ

لا تقولوا: (برى الإلـهُ) ولكـنْ ... أوضِحوا سِرَّ ما طوتْهُ القلوبُ
ما أردتُمْ إلاّ سراحَ نفوسٍ ... الهوى قائدٌ لها وجَنيبُ
أكْعِموها عن الرذائلِ، فالجا ... محُ طبعاً يَرُوْضُهُ التدريبُ
كعمتْها الأديانُ، لكنْ أبيتُمْ ... كي يسودَ الهوى، ويفشو الحُوبُ
وجَهلْتُمْ مواضعَ الحربِ حتى ... قُلْتُمُ: (الدينُ فِتنةٌ وحُروبُ)
أيُّ دينٍ ما جاءَ بالسِلْمِ والحِلْـ ... ـمِ، وللعفْوِ منهُ صدرٌ رَحيبُ
أَفعيسى ذاكَ الوديعُ أم التو ... راة قِدْماً؟ أم النبيُّ الحبيبُ
غيرَ أنَّ الأجسامَ يبغي عليها الـ ... ـدمُ حيناً حيثُ الهلاكُ قريبُ
وبَقاءً على السلامةِ يُضْطَرُّ ... إلى الفَصْدِ ما هناكَ الطبيبُ
إنَّ هذي الأشجارَ لا تُحسِنُ الإثـ ... ـمارَ حتى يَنتابَها التشذيبُ
فاسِدُ العُضْوِ قَطْعُهُ خوفَ أنْ ... يسري إلى الكُلِ حِكْمَةٌ ووجوبُ
وأرى عِلّةَ الفَسادِ هي الإلْحادُ ... لو يَفحَصُ الشؤونَ النقيبُ
ثِقَةٌ للورى بِدينونةِ النَفْسِ ... على النفسِ وازعٌ ورقيبُ
صَادرَتْها المشكّكونَ فعاد الـ ... ـناسُ في مَهْمَهِ الخطايا تجوبُ
غلبَ الحرصُ والتعادي فشبّتْ ... فِتَنٌ مَزّقتْهُمُ وحُروبُ
حيثُ ما بعدَ هذهِ الدارِ دارٌ ... يُرتجى فَوزُها أو التعذيبُ
فَهُمُ يحرصونَ جهْداً عليها ... وجَناها هو المنى المطلوبُ
وتَرى الكُلَّ يَطلبُ الكُلَّ منها ... وبِذا ثارَ للضرابِ ضروبُ
فانظُروا مَن جَنى على الخلقِ ذي ... الويلاتِ أنتُمْ أمْ دينُنا المحبوبُ؟
لا وعِزّ الأديانِ لا عيبَ فيها ... إنما العائبُ الأثيمُ معيبُ
لا تَقولوا لنا الهنا بِسواها ... (إنْ تقولوا فقولُكُمْ مَكذوبُ)

فَهِيَ الطِبُّ والنفوسُ مِراضٌ وَهِيَ الخِصْبُ والعُقولُ جُدوبُ
وَهِيَ النورُ والليالي ظَلامٌ وَهِيَ الطُوْرُ والدُهورُ سُهوبُ
ما عليها لَوْمٌ وإنْ كانَ شَيءٌ فعَلى بعضِ أهلِها التأنيبُ
أهْمَلوها حتى تَلاعبَ فيها ذو الجهالاتِ والجَهولُ لَعوبُ
لا تَقولوا الأديانُ قدْ فَرّقتْنا إنّها مِن سياسةٍ أُسلوبُ
مَزَّقونا لِيأكلونا وحَاجٌ قدْ قَضاها لِنفسِهِ يَعقوبُ
نبَزوا الدينَ بالتفرُّقِ لكنْ نحنُ والدينُ يوسفٌ والذيبُ
عَلّمونا أنَّ السعادةَ فيهِ وسواهُ التخريفُ والتخريبُ
عَلّمونا أنَّ الجزاءَ عَنيدٌ وهُناكَ الترغيبُ والترهيبُ
كي تَخِفَّ الغَلواءُ مِنْ هذهِ الأنفسِ شُحّاً وتَطمئِنَّ القُلوبُ
عَلّمونا أنَّ الوجودَ بَقاءٌ وعلى العُودِ يَستحيلُ الرُّسوبُ
عَلّمونا أنَّ المجرَّدَ لا يَفْنى ولكنْ مُستهلكٌ ومُنيبُ
عَلّمونا أنَّ المركّبَ فينا يَتلاشى ويفسُدُ التركيبُ
عَلّمونا أنَّا جميعاً بنو جِنْسٍ، ولكنْ قبائلٌ وشُعوبُ
علّمونا وَداعةً وسَخاءً وإخاءً بهِ الحياةُ تَطيبُ
عَلّمونا أنَّ الدِيانةَ عَقْدٌ يلتقي الربُّ فيهِ والمربوبُ
ليسَ مِن شأنِها العِداءُ وأنْ يُصْبِحَ ذا ناكبٌ وذا مَنكوبُ
علّمونا مَعَ الأنامِ سَلاماً لا سِلاحاً كالصاعقاتِ يَصوبُ
كلَّ يومٍ تُبْدونَ مِنهُنَّ شَكْلاً كُلُّ شَكْلٍ للحَتْفِ فيهِ ضُروبُ
كمْ مَحقْتمْ فيها بِلاداً وقَوماً وأُبيدَتْ بها شبابٌ وشِيْبُ
ليتَ شِعْري أَجاءَ هذا مِنَ الأديانِ أمْ مِنْكُمُ بهِ التَسبيبُ

كـم جَنيتُـمْ في الاجتمـاعِ ذُنوبـاً … وزعـمتُـمْ مِنّـا عليـهِ الذنـوبُ
خَبّـرونـا مَـنْ شَـرّعَ العَـدْلَ والفَضـلَ … وهـل فاتَنـا القِصـاصُ الرهيـبُ
لا وحـقِّ الإنصـافِ لَـمْ تُنصفونـا … وَلـكَ الـشـرُّ لا لَنـا مَنسـوبُ
غـيـرَ أنَّ الأديـانَ حِجْـرٌ عـلـى … الأنـفُسِ والـنفسُ مَيْلُها التسيـيبُ
عَلّـمونا أُخُـوَّةً بارحَتْنـا … فـدَهانـا التشتيـتُ والتنكيـبُ
ليـتَ أنّـا نَـدري بمـا قـد دهانـا … فـاتفـاقٌ فنهضـةٌ فـوثـوبُ
قـد دَهـتْنـا الأهـوالُ تُـنـذِرُ جَهْـراً … سـوفَ يَسـتعبـدُ الشروقَ غُـروبُ
وهُنـاكَ الـفَنـاءُ حـقـاً وإلاّ … فـحيـاةُ الذليـلِ مَـوتٌ كريـبُ
فَـدعونـا مـن التضـارُبِ إنّـا … في رزايـا مـا إنْ لَهُـنَّ ضَريـبُ
فَـعسـانا نَهـبُّ مِـن وَهَـنِ الـوَهْمِ … فيَـرتدُّ مجـدُنـا المسـلـوبُ
ودَعـوا الـدينَ ليـسَ للديـنِ جُـرْمٌ … ل عـلى النـاسِ جُرمُهـا المكسـوبُ
إنَّ تِـلْـكُـمْ دَلائـلـي ولَعمْـري … إنَّ نهجَ الهـدى بهـا مَلْحـوبُ
وإذا لـم يُـفِـدْ بِكُـمْ كُـلُّ هـذا … واستمـرَّ الجُحـودُ والتكذيـبُ
فَـطبـاعُ العِنـادِ فيكُـمْ قـديـمٌ … ولَـكُـمْ فيـهِ دُربـةٌ ودروبُ
ذاكَ أقـوى سلاحِـكُـمْ ولَـعمري … (هـو منكـمْ ميراثُنـا المشجـوبُ)
أيُّها العاطِـشُ الحشـا نَـهْـلَـةَ العلـمِ … انتَجِعْهـا فهـي الحَيا الشؤبـوبُ[٣]
بَـيّناتٌ تهمي بهـا سُحُـبُ الفِكْـ … ـرِ مَراهـا [٤] التـفتيـشُ والتنقيـبُ
هِـيَ كـالـمُـزْنِ عنـدَ قـومٍ مِيـاهٌ … ولِـقـومٍ صَواعـقٌ ولهيـبُ
صَفـوةٌ قـد أصبتُهـا بعدمـا … طـالَ إليهـا التصعيـدُ والتصويبُ
إنْ تَجِدْهـا طالـتْ فمـا هُـوَ إلاّ … نَفَـسٌ واسـعٌ وصـدرٌ رحيـبُ
وأراهـا وإن تَـطُـلْ دونَ مـا تُـلْـ … ـزِمُ للحـقِ ذِمّـةٌ ووجـوبُ

وحـذار المـلالِ صَـدَّ وإلاّ | فمَجالُ المقالِ عِـدٌّ [٥] خصيبُ
ولكم مِثْلها وضيء بيان | كيَفاعٍ بـه السنا مشبوبُ [٦]
إنْ تُحـرِّكْ تَجِدْ وإلاّ فَدَعْهُ | فَقلوبُ الورى لها تَقليبُ
خائبٌ مَنْ يَرومُ بالدِينِ سُوءً | إنّ للدينِ عِصْمةً لا تخيبُ
فَعلى القائلينَ عَدلاً سلامٌ | ما تجاوَبْنَ شَمألٌ وجَنوبُ

* هوامش البحث *

(١) هو صاحب مجلة (المراقب) في بيروت وهو أحد ضحايا طلب الاستقلال لوطنه على يد جزار المشانق السورية في الحرب العمومية (جمال باشا) مع جماعة من الشهداء من عيون الرجال وكان أكثرهم من أصدقائنا. (الهامش للشيخ كاشف الغطاء).

(٢) هكذا ورد البيت كما في مقال الكتاب المطبوع، وربما هنا خطأ مطبعي؛ صحّف (عيناً) فكتبها (عنيا). وعلى كل حال فالقصيدة فيها ضعف كثير، وركاكة واضحة، ولذا عقب الشيخ على بيت سابق بـ(كذا)؛ لأن الصحيح فيه نصب كلمتي المرغوب والمرهوب وليس رفعها بالضم باعتبارهما خبرين ليكون (أن يكونَ المرغوبَ لا المرهوبا)، ولكن ربما شاعرها أراد بها (يكون) التامة وليست الناقصة، أو جعل المرهوب خبراً لمبتدأ محذوف بعد (لا)، وهذا كله / على فرض تنبه الشاعر (المستغرِب) إليه/ لَما يُضعف السبك، وينبو بالفصاحة.

(٣) ورد البيت بزيادة كلمة (إلى) هكذا:

أيُّها العاطِشُ الحشا إلى نهلة | العلم انتجعها فهي الحيا الشؤبوبُ

وبها يزيد الوزن الشعري الذي هو وزن بحر الخفيف، ويبدو لي أن الشيخ كاشف الغطاء أثناء كتابته مسودة القصيدة نسي حذف هذه الكلمة.

(٤) جاء في كتاب المحيط في اللغة : مرى: المَرِيُّ: النّاقَةُ الكَثِيْرَةُ اللَّبَنِ.

والمَرْيُ خَفِيْفٌ : مَسْحُكَ ضَرْعَ النّاقَةِ تَمْرِيها بيَدَيْكَ لكَي تَسْكُنَ للحَلَبِ. والرِّيْحُ تَمْرِي السَّحَابَ مَرْياً.

ومَرَيْتُ فلاناً بكذا: أي زَكَّيْته بقَوْلٍ حَسَنٍ ومَسَحْته.

وفي فقه اللغة: مرى الناقة إذا استخرج لبنها

وللأمانة التحقيقية قد تكون الكلمة (عراها) وليس (مراها) لتقارب رسم حرف العين والميم بخط الشيخ.

(٥) العِدُّ: مُجْتَمَعُ الماء، وجمعه أعداد، وهو ما يُعِدُّه الناس، فالماء عَدٌّ، وموضع مجتمعه عِدّ. ولكن حرف الدال بخط الشيخ كان فوقه نقطه، أو شدّة تشبه النقطة، ولا ندري هل هذه النقطة وضعها سهواً؟ أم هي شدّة غير واضحة؟ أم أنه أراد بها كلمة (عذ)؟ وهذا بعيد.

(٦) اليَفاعُ: التلُّ المُنيفُ. وكلُّ شيءٍ مُرتَفع يَفاع. ولم أشكل صدر البيت بالحركات لأنه يجوز فيه أكثر من وجه؛ إذ يمكن أن يقال: **وَلَكُمْ مِثْلُها وَضِيءُ بيانٍ**، فتكون كلمة (وضيء) اسماً، كما يمكن أن يقال: **وَلَكَمْ مِثْلَها، وَضِيءَ بَيانٌ** إذا كانت فعلاً مبنياً للمجهول.

